

التعقيد في شعر المتنبي

عرف شعر المتنبي بكثرة الأبيات المعقدة معنى وتركيباً ولفظاً حتى عد التعقيد من خصائصه ، وكثر ذلك كثرة أدهشت المعجبين به وعشاق شعره . وأظن أن كثيراً من المتأدين لا يجدون غضاضة في هذا التعقيد ، بل منهم من يلذ له هذا النوع من التول ، وأحسبهم يشعرون بشيء من الغبطة حين يجلو الشرح لهم المعنى المغلق البعيد .

والتي يعنيني الآن أن أحاول فهم سبب هذا التعقيد في شعر رجل كأبي الطيب مهما اختلف الناس في حبه أو حب شعره فلاخلاف في أنه شاعر قادر فذ . وليس للشعر معنى إن لم تكن فيه صورة نفس الشاعر سواء أ كان على علم بهذه الصورة أم لم يكن . والشعر يدل على كثير من خصائص نفس فائله بصرف النظر عن المعنى الذي يدل عليه اللفظ أو الفكرة التي يريد الشاعر إرازها . ومن السهل على الجبان أن يفخر بشجاعته حتى لتحسبه صنديداً لا يشق له غبار ، ولكنه إن كان شاعراً حقاً فستجد في شعره ما يدل على حقيقته مهما كانت دعواه .
ولدى ما يحملني على اعتقاد أن التعقيد في شعر المتنبي لم يكن عفواً بل فيه ما يدل على حالة نفسية معينة .

الشعر المعقد في ديوان أبي الطيب نوعان :
نوع جاء فيه التعقيد عرضاً ، كأنما الشاعر ارغم عليه ، وذلك كالبيت الثاني من القصيدة التي مطلعها :

آراها لكثرة العماق تحسب الدمع خلقة في المآقي
كيف ترثي التي ترى كل جفن راءها غير جفنها غير راقى

بدأ البيت الثاني سلساً كالأول أو أمهل منه قياداً ، ثم صعب في أول الشطر الثاني حتى اضطر المتنبي إلى تعقيدده والاعراب فيه ، ثم خلس من صعوبته فجاء على ما يراه القارئ واضح التعسف نابي اللفظ سيء الانشاء .

وتم نوع جاء التعقيد فيه عن قصد؛ فالشاعر أراد أن يكون قوله معقداً صعباً كما في قوله .

وفاؤكما كالربع أشجاه طامحه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

لا نزاع في أن المتنبي وضع هذا البيت ليتعب سامعيه وشارحيه قصداً . ولا بد أنه كان يسره أن يرى سامعيه في حالة دهشة وتفكير وبحث وإن كان أثر تعبته في إنشائه لا بد أضع عليه شيئاً من هذا السرور .
ونوع ثالث هو خليط بين هذين النوعين من التعقيد، كما في قوله :

أحاد أم سداس في أحاد ليلتنا المنوطة بالتنادي

أراد المتنبي أن يخرج هذا البيت معقداً فأغرب فيه من أول كلمة بدأها إتماماً لسامعيه، ثم تعب هو نفسه فاضطر إلى التعقيد فوق التعقيد، وأقحم كلمة « ليلتنا » اضطراراً كما اضطر إلى « راء » في البيت السابق .
وكل من هذين النوعين يدل على حالة نفسية .

وإني لأرى في التعقيد الأول أثراً من آثار حرص المتنبي، فهو يبدأ البيت حسناً سهل المطلع واضح الفكرة، ثم يصعب إتمامه فيعز عليه أن يضع البيت وفيه هذه الحسنات فيتمه بأي شكل كان . وليس له في ذلك عذر؛ إذ ليس في الشعر العربي من الاتساق ولا بين أبيات القصيدة من الارتباط ما يجعل إسقاط بيت أو بيتين ذا أثر في القصيدة . فلم يكن هنالك مانع من ترك هذه الأبيات لولا أنه عدها ملكاً له يحرص عليه، وهو نوع من البخل قد لا يعاب كثيراً وتجده منتشراً بين كثيرين من الكتاب . ومن الناس من يحرص على فكرة عرضت له فيكررها ويسرف في إبرازها وهي بعد عادية لا تمتاز بشيء من الطرافة . والانسان معذور حين يحرص على الدرة الغالية والفكرة العالية . ولكن الحريص يحرص على كل ما يملك وإن كان شيئاً لا قيمة له . وإنا لنجد في الكتب التي تحوى مجموعة من الأفكار المستقلة دون أي ارتباط خاص بينها، نجد في هذه الكتب حتى عند أكبر المفكرين الفكرة الهزيلة بجانب الفكرة الرائعة . ويمعجب الانسان كيف لم يسقط المؤلف هذا النوع من القول العادي .
أما النوع الثاني من تعقيد المتنبي فسببه أعمق . وشرح ذلك أن كثيرين من

الناس يحبون أن يضعوا صعوبات وهمية أمام أنفسهم يخادعون بها أنفسهم ليقنعوا بأنهم يستطيعون ما يريدون متى أرادوا .

ومن ذلك أمثلة مضحكة ، منها الرجل الذي يسير على إفريز في الشارع متعمداً ألا يضع رجله على فاصل بين حجرتين ، وآخر يتوخي أن يتخطى كل حجر كبير يصعب تحطيه حين يمر به على الإفريز . ومن الأمثلة المعروفة في ذلك من يكون لديه ساعات يصل فيها إلى دار التمثيل ، فينصرف عن ذلك إلى غير عمل حتى لا يكون بينه وبين ميعاد التمثيل إلا دقائق ، ثم يهرول ويصل في الدقيقة التي أرادها دون تأخير وهو فرح بذلك ليقنع نفسه أنه يستطيع ألا يتأخر عن ميعاده إذا أراد مهما كلفه ذلك من الصعوبات ناسياً أنه خلق لنفسه الصعوبة خلقاً .

هذا النوع من العمل له دلالة معينة ترد كثيراً عند التحليل النفسى ، وهو يدل على أمل خائب أو إخفاق متوقع ، وفي عصرنا هذا أكثر دلالاته على الحب الخائب . ولا أظن ذلك أرجح الأسباب في حالة المتنبي ، وإنما هو دليل على ما كان يعلمه في نفسه من قصور عن بلوغ أمل يعلم حق العلم أن ليس له قدرة على تحقيقه لا ليعيب في زمانه ولكن ليعيب فيه .

هذا التعقيد مقصور على عهده الأول ، والظاهرة النفسية التي نحن بصددھا تكون في عهد الشباب . ثم اتصل بسيف الدولة فلاحته بارقة أمل . ثم أخفق وجاء إلى مصر ولم يعد به من القدرة على خداع النفس ما يستطيع أن يوهم به نفسه أن التخلص من صعوبة الشعر دليل على قدرته على التخلص من صعوبات الحياة بنفس السهولة إذا شاء .

فالتعقيد ظاهرة واضحة الدلالة على عقلية المتنبي إبان شبابه ، وهي دليل صريح على صغار في النفس وقصور في الهمة والكفاية وعلى تباعد ما بين غناء الفتى وآماله . وللناس أن يأملوا في الحياة ما يشاءون وإنما يقاسون بما يستطيعون ، وبين ذلك وبين آمال المتنبي بون شاسع .

واقتناعي بهذا الدليل على الجهد القصير والعزيمة الفاترة ، يجعلنى على ثقة من حقيقة نفس أبي الطيب . ولن يغير من اقتناعي شيئاً ما زعم لنفسه من الشجاعة والقدرة على كل شيء ولا ما قيل عن علو همته ولا ما ذكر عن الخيل والليل والبليداء والسيف والرمح

وإذا شاء القارئ أن يعتمد هذا طعناً في أبي الطيب فله ذلك إن كان ممن

يحبون أن يصدروا أحكاماً على الناس وطبائعهم ، ولكني لا أحب أن يكون ذلك طعنًا في شعره . وعندى أن شعره دل على صفات كامنة غير ما يدل عليه ظاهر قوله . وذلك عندى دليل على الشعر الجيد الذى خرج عن مجرد الصيغ المألوفة . ولا يجب أن يكثر المؤلفون من ذكر علو همة المتنبي ولا أن يقدموه للشباب على أنه مثال يحتذى ؛ فهو لم يكن كذلك ، وشعره لا يحمل إلى قرأته هذا الشعور رغباً من حماسة موضوعاته .

وهنا لا أجد مفرًا من ذكر كلمة « بول فاليري » : إن الموضوع بالنسبة للقصيد كالاسم بالنسبة للرجل ألصق الأشياء به وأبعد الأشياء عنه



إنما قصر شعر المتنبي من ناحية أخرى ، وذلك أنه مع دلالاته على نفسه عجز تمامًا عن أن ينقل للناس أية عاطفة ترفعهم عن حياتهم العادية . فإعجابنا بشعر المتنبي إعجاب عقلى محض ، أو بعبارة أخرى إعجاب بالصياغة . وقد تكون هذه العقلية الخالصة أضعف نواحى أبى الطيب .

شعر المتنبي فى أحسن حالاته يمثل أرقى الشعر العربى بكل عيوبه ومزاياه . وعلى شدة إعجاب الناس به وعلى إعجابى به فى عهد من عهود حياتى ، لم أزل أجد فيه ما يرغبنى عنه وما يجعل اللذة الفنية عنده مشوبة بكثير من النقص . ويتبين ذلك بوضوح تام عند قراءة الكثير من شعره جملة واحدة .

والعرب عادة ينظرون إلى بيت الشعر قائماً وحده مستقلاً ، فنأجد فى كثير من الأبيات فهو شاعر مجيد ، ولم يعنوا كثيراً بدراسة القصيدة من حيث وحدة نظام التفكير فيها واتساقها ، ولم يحاول كثير من نقادهم أن ينظروا إلى ديوان الشعر على أنه عمل واحد يدل على عقلية معينة .

فطريقة التقيد عند العرب المنصبة على الأبيات مستقلة ترفع المتنبي إلى ذروة المجد ، فإذا نظرنا إلى قصائده وجدناها أقل روعة . وعند نظر ديوانه جملة يتبين الكثير من النقص المعيب .

وقد حاولت أن أستقصى أسباب ما يشعر به الإنسان عند قراءة الكثير من شعر المتنبي جملة من ضيق لاشك فيه . وعندى أن ذلك يرجع إلى شيئين : أنه شعر عقلى محض ، وأنه ينقصه الشعور الإنسانى الرقيق .

التعقيد في شعر المتنبي

والصفة المحببة إلى الناس في الشعر هي حمل صور جميلة إليهم بشكل لم يكن يخطر لهم بسهولة . والخيال هو تلك القدرة التي يستطيع بها الشاعر أن ينقل إلى الناس هذه الصور نقلاً يرتفع بهم فوق مستوى إحساسهم العادي . وأما الصور العقلية المحضة فقد تستساغ حيناً ولكنها حين تكثر تصبح عقيمة متعبة . وإذا كان لهذا التعريف قيمة فالمتنبي من أقل الناس خيالاً . وسأضرب لذلك أمثلة من خير شعره ؛ فليس من العدل حين ندرس الشعراء أن نلتمس ما فيهم من نقص في غير الجيد من قولهم .

المتنبي فكر كثيراً ، ولكنه لم ير شيئاً بغير العين التي يرى بها أقل الناس قدرة على الشعر . وليس في الصور التي يعرضها والتشبيهات التي فايتها تقريب هذه الصور ما يرفع من إحساسنا شيئاً أو يخرجنا عن نظرنا العادي وتفكيرنا اليومي .
وقديماً أعجب الناس بهذا البيت :

وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم

وهو خير مثل للصور العقلية التي لاغناء فيها والتي تتعب خيال القارئ دون أن تنقل إليه صورة ما إلا صورة مستحيلة تكاد تكون عقيمة لا تستريح إليها النفس مطلقاً .

ثم قوله :

قد سودت شجر الجبال شعورهم فكأن فيه مسفة الغربان

لأ كاد أصدق أن هذه الصورة خطرت للمتنبي وهو ينظر إلى الموقعة ، فرأى فيها الشعور تسود الشجر ؛ فهي صورة عقيمة ، إنما تخطر لرجل حين يخلو إلى نفسه في بيته يريد أن يتخيل موقعة فيدكر السواد ، فيخطر له الشعر ثم الغربان . ليس ذلك خيال رجل مرهف الحس رأى الموقعة فعلا فهاجت في نفسه صوراً غير عادية يريد أن ينقلها إلى الناس . هذه الصفة ليس للمتنبي فيها كثير ولا قليل ، وهذا البيت يدل على أنه كان شاعراً بفكره لا بإحساسه وخياله .

ثم انظر قوله :

فأقبل يمشى في البساط فما درى إلى البحر يسمى أم إلى البدر يرتقى

فهو حين يصف رسول أمة مهزومة يدخل على ملك مهتصر بيده القضاء على

التعقيد في شعر المتنبي

كل ما هو عزيز لديه ، تجده لا يصور ذلك المنظر وما فيه من رهبة وذلة أو أنفة
وغضب أو احتمال على مريض أو غير ذلك من صور هذا المنظر الرهيب ، وإنما تراه
يترك ذلك كله ليقول بفكره مثل هذا القول العادي : « إلى البحر يسعى أم إلى
البدري يرتقى . »

وليس في وصف المتنبي للمواقع ما يدل على أنه حضرها فرأى فيها ما لم يره
أبسط الجند فكراً .
أنظر قوله :

هذي نواظرها والحرب مظلمة من الاسنة نار والقنا شمع
وقوله :

تضحى الحصون المشمخرات في الذرى وخيلك في أعناقهن قلائد
حتى الصورة الأخيرة أفسدها عدم اتساقها مع رهبة الموقف .
أما نقص الشعور الانساني في شعره فواضح مؤلم ، ويزيده نقص الصور الحية
في ذلك الشعر .
أنظر قوله :

يطمع الطير فيهم طول أكلهم حتى تكاد على أحيائهم تقع
ليس هذا مما يرفع من قيمة إحساس المتنبي حين نذكر أنه يصف جثث القتلى
محو . ولها الطيور .
وقوله :

وجرى على الورق النجيع القاني فكأنه النارنج في الاغصان
هذه الايات صور عقلية عقيمة ، فهي من الناحية الفنية عبث ، ومن الناحية
الانسانية مزعجة .

في أحسن شعر المتنبي إسراف شديد في العقلية المحضة الخالية من كل أثر
للخيال الخصب ، الذي يرى في الحياة والطبيعة ما لا يراه غيره ، والذي ينقل الصور
العالية إلى القسارى ، ثم إن الفرض التي أتاحت للمتنبي أن يرى عن قرب أموراً

